

قناة لوغوس بالولايات المتحدة الأمريكية
إيبارشية لوس أنجلوس
سبتمبر وأكتوبر ٢٠١٤ م
الراهب القس أناسيوس المقاري

حضور المسيح في سرّ الإفخارستيا عند الكنائس المختلفة

أولاً: حول كيفية حضور المسيح في سرّ الإفخارستيا في الكنائس المختلفة

نشأت محاولة تفسير كيفية حضور المسيح في سرّ الإفخارستيا، في الغرب أولاً، ومن الغرب انتقل هذا التفسير إلى بعض الكنائس الشرقيّة. ففي الغرب نشأ مصطلح لاتيني يختص بالألاهوت الإفخارستي الغربي، وهو مصطلح "الاستحالة الجوهرية" Transubstantiation. وهو التعليم الذي يحاول الولوج إلى قلب السرّ نفسه، وشرح كيفية حضور المسيح في سرّ الإفخارستيا بأسلوب فلسفي! أمّا مضمونه، فهو أنّ عنصري الذبيحة، أي الخبز والخمر "يتحوّل جوهرياً" إلى جسد المسيح ودمه الأقدس، ولا يبقى منهما سوى العرّض فقط. أو بتعبير آخر، أنّ الخبز والخمر بعد التقدّيس، لا يصران موجودين بعد، بل عرضاهما فقط. وهو الألاهوت المبني على فلسفة أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) الفيلسوف اليوناني، القائلة: إنّ لكلّ مادةٍ جوهر - essentia - substance الذي هو حقيقة المادة، وعرّض - forma - accident أي مظهر هذه المادة وصفاتها المدركة بالحواس.

ولقد تغلغل هذا التعليم الغربي إلى الألاهوت الأرثوذكسي، وأصبح شرح ما يحدث في السرّ المقدّس بتعبيرات عن الجوهري والعرّض، عقبة في سبيل قبول مبدأ أنّ حضور المسيح في الأسرار لا يُقبل بغير الإيمان^(١).

ولقد بدأ هذا الموضوع يشغل الفكر الغربي منذ القرنين التاسع والعاشر للميلاد، مع ظهور "الألاهوت المدرسي"^(٢)، وانتشر كثيراً منذ القرن الثاني عشر، وتقرّنت كعقيدة كاثوليكية في مجمع لاتيران Lateran سنة ١٢١٥م، وبلغ ذروته على يد توما الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤م). وفي مجمع ترنت Trent (١٥٤٥-١٥٦٣م) أُعيد التأكيد على هذه العقيدة، لكن بقدر أقلّ قدرًا في التّعبيرات الفلسفيّة.

وفي سنة ١٦٧٣م أعلنت الكنيسة الأنجليكانية من جانبها رفضها الكامل لتعليم "الاستحالة الجوهرية"، قائلة: "ليس هناك أيّ استحالة في سرّ العشاء الربّاني، أو لعنصري الذبيحة، أي الخبز والخمر أثناء أو بعد التقدّيس"^(٣).

والتّعليم الغربي عن كيفية حدوث هذه الاستحالة الجوهرية Transubstantiation، قابله تعليم غربي آخر مضاد لتعليم "الاستحالة الجوهرية"، عُرف باسم Consubstantiation وهو التعليم المنسوب أصلاً إلى مارتن لوثر^(٤) Marten Luther (١٤٨٣-١٥٤٦م) مؤسس المذهب البروتستنتي، والذي يقول: "إنّ جسد المسيح ودمه، موجودان جنباً إلى جنب في وحدة co exist in union مع الخبز والخمر. فجوهري الخبز والخمر لا يتحوّلان، بل يُضاف إليهما جوهر جسد المسيح ودمه"^(٥). وقد شبّه لوثر ذلك الأمر، بالحديد الذي يوضع في النار، فيبقى جوهر الحديد على ما هو عليه،

١- انظر مثلاً: المطران سويسر زكا عيواص، والأب الربان اسحق ساكا، الأسرار السبعة بحسب معتقد وطقس الكنيسة السريانية الأرثوذكسيّة، طبعة أولى، بغداد، ١٩٧٠م، ص ٩٢، ٩٥.

٢- الألاهوت المدرسي: هو الألاهوت الذي يعتمد على المنطق والفلسفة في إثبات العقيدة، بعيداً عن التحامه بالليتورجيا. ولا نستطيع أن نغفل تأثير هذا الألاهوت المدرسي على الكنيسة الأرثوذكسيّة في الشرق بدءاً من القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن العشرين تقريباً. بل لازال هذا التّعليم الغربي يتردّد في تعاليم بعض معلمي الكنيسة الأرثوذكسيّة حتى اليوم.

3- Cross, F.L., & Livingstone, E.A., *The Oxford Dictionary of the Christian Church (ODCC)*, (2nd edition), 1988, p. 384.

4- *Ibid.*, p.340.

٥- هناك قول للقدّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م) يقول: [إنّ الخبز الإفخارستي، باستدعاء الرّوح القدس، لا يحجب حضوراً آخر، بل يوحد الطّعام السّمائي وطعام الأرض، إذ يجعلهما شيئاً نفسه، وهذا هو السرّ] (ضدّ الهرطقات ٤: ٤٣).

انظر: الأب سليم بسترس، الألاهوت المسيحي والإنسان المعاصر، الجزء الثالث، منشورات المكتبة البولسيّة، ١٩٨٨م، ص ١٧٨.

ولكن يُضاف إليه جوهر النَّار. فلم يرفض لوثر "الحضور الحقيقي" للمسيح في سرِّ الإفخارستيا^(٦)، ولكنَّه رفض مفهوم "التَّحوُّل الجوهري". ولقد حرَّمت الكنيسة الكاثوليكية تعليم لوثر في الجمع التَّريدينيني (١٥٤٥ - ١٥٦٣م)، وهو الجمع الذي تبنَّى عقيدة "التَّحوُّل الجوهري".

ولم تلتزم كلُّ الكنائس البروتستنتية بتعليم لوثر عن حضور المسيح الحقيقي في سرِّ الإفخارستيا، فبعض منها يتكلم عن نوع من الحضور الرُّوحي، وما الإفخارستيا سوى ذكرى موت المسيح وقيامته، ومن خلال هذه الذكرى يصير المسيح حاضراً في الاحتفال الإفخارستي. مُجمله، الذي تدعوه تلك الكنائس "عشاء الرَّب".

وأماً في الشَّرْق المسيحي، وفي القرن الخامس عشر الميلادي^(٧)، فقد تبنَّت الكنيسة اليونانية (البيزنطية) تعبير μετασώσις لنشر به إلى تعليم مطابق إلى حدِّ كبير للتَّعليم الغربي عن "الاستحالة الجوهريَّة"، وأعطته صيغة قانونية مناسبة في القرن السَّابع عشر في مجمع أورشليم الذي عُقد سنة ١٦٧٢م^(٨).

والآن علينا أن نبحث في تعليم آباء الكنيسة الأوائل عن هذا الأمر

لم تخلُ كتابات آباء الكنيسة^(٩) من الحديث عن التَّحوُّل الذي يجري للخبز والخمر في سرِّ الإفخارستيا، ولكن ليس بمفهوم "الاستحالة الجوهريَّة" كما في اللاهوت الغربي.

فعلى سبيل المثال يقول القديس كيرلس الكبير في شرحه لإنجيل القديس متى:

[... لكي تعرف أنه بفضل قدرة الله الضَّابط الكُلَّ الفائقة كلِّ وصف، قد تحوَّلت μεταποιεῖσθαι

القرابين بالحقيقة إلى جسد المسيح ودمه]^(١٠).

فيحسب فكر آباء الكنيسة، نحن نتناول جسد المسيح الحقيقي في صورة الخبز، ونتناول دم المسيح الكريم في صورة الخمر. فحضور المسيح في الأسرار ليس حضوراً مادياً، ولا حضوراً روحياً، بل هو حضور سريٍّ وحقيقيٍّ في آن معاً.

لقد حافظ اللاهوت الأرثوذكسي على تعليم الآباء، الذي يؤكِّد على الحضور الحقيقي للمسيح في سرِّ الإفخارستيا، وتحوُّل الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، دون محاولة تفسير هذا التَّحوُّل بلغة الفلسفة. إذ يرفض اللاهوت الأرثوذكسي مفهوم تحوُّل جوهر الخبز والخمر في الإفخارستيا Transubstantiation وهو التَّعليم الكاثوليكي، ويرفض أيضاً مفهوم وجود الجوهرين معاً consubstantiation أي جوهر الخبز والخمر من جهة، وجوهر جسد المسيح ودمه من جهة أخرى، وهو التَّعليم اللوثيري. ف**جسد المسيح** لا يكون مكان جوهر الخبز، كما يقول الكاثوليك، ولا معه، ولا فيه، كما يقول لوثر، بل بحسب اللاهوت الأرثوذكسي "هو" هذا الخبز بعد تقديسه. "هذا هو جسدك الطَّاهر نفسه..."، و"هذا هو دمك الكريم عينه...".

فالرَّب حين أخذ خُبزاً، شكر وبارك وكسَّر وأعطى التَّلَامِيذ قائلاً: «خذوا كلُّوا هذا هو جسدي»، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً: «خذوا اشربوا ... هذا هو دمي» (متى ٢٦: ٢٦، ٢٧). «الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يوحنا ٦: ٥١).

وفي قول للعلامة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) في غاية الدِّقة، يقول:

[الخبز المنظور ... يحمل سرَّ الجسد المكسور. والشَّرَاب المنظور يحمل سرَّ الدَّم المسفوك]^(١١).

٦- انظر: الأب سليم بسترس، مرجع سابق، ص ١٧٧

٧- القرون من الخامس عشر إلى الثامن عشر هي قرون الضَّعْف الليتورجي في الكنيسة الشَّرقيَّة على وجه العموم.

8- ODCC., (2nd edition), p. 384.

٩- مثل القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م)، والقديس غريغوريوس النَّيسي (٣٣٠-٣٩٥م)، والقديس أمبروسوس (٣٣٩-٣٩٧م)، والقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م)، وآخرون.

10- PG lxxii, 452C.

١١- عظة ٨٥ على إنجيل متى.

ويقول إيدوكيموف Evdokimov في كتابه "الأرثوذكسية": "إن خطأ العقيدة، يقوم على الاهتمام بالموضوع وليس بالشخص، بالخبز وليس بالإنسان. يجب ألا نحلل المعجزة على غرار التحليل الكيميائي تبعاً لحواسنا، بل يجب بالحري أن نتهم حواسنا بأنها لا ترى المعجزة الحقيقية، الحقيقة السماوية. هناك شبهة مع معجزة تجلي المخلص على جبل تابور؛ فليس المسيح هو الذي تغير، بل أعين الرُّسل التي تفتتح زهاء لحظة... الشرفيون ينظرون بعين الإيمان، ويرون لأوّل وهلة الجسد والدم، ولا شيء سوى ذلك" (١٢).

والآن، ومع تقدّم العلوم وظهور النظريات العلمية الحديثة عن تركيب المادة، تهدمت نظرية أرسطو عن الجوهر والعرض، وبالتالي التعليم عن "الاستحالة الجوهرية - Transubstantiation". فجميع المحاولات لشرح ما يحدث في الإفخارستيا بتعبيرات عن الجوهر والعرض، باءت بالفشل. والليتورجيات الشرفية لا زالت حتى اليوم نقيّة، لا تحوي دليلاً يدعّم عقيدة "الاستحالة الجوهرية".

وعاد اللاهوتيون البروتستانت إلى تدارك القصور في تعليم ال Consubstantiation بعد أن ظلوا يدافعون عنه مئات السنين. وصار كثير من اللاهوتيين الأرثوذكس في العصر الحديث يتفادون تعليم "الاستحالة الجوهرية"، وبالتالي المصطلح اليوناني μετασυσίωσις بسبب ارتباطه الوثيق باللاهوت المدرسي اللاتيني (١٣).

وهكذا عادت الكنيسة الجامعة في هذا الشأن إلى تعليم الآباء، فالخبز والخمر بكلمات التقديس واستدعاء الروح القدس ينتقلان ليصيرا جسد المسيح ودمه الأقدس، وهذا هو التعبير الدقيق في نص صلوات الليتورجيا القبطية.

ثانياً: حول وقت حضور المسيح في سرّ الإفخارستيا في الكنائس المختلفة

وكما بحث الغرب في كيفية حضور المسيح في سرّ الإفخارستيا، كأحد أهم الفلسفات اللاهوتية التي تعرّض لها السرّ في الغرب، بحث أيضاً في وقت حضور المسيح في هذا السرّ المقدّس. فقد علّمت الكنيسة الغربية منذ القرن الرابع، أن حضور المسيح في هذا السرّ المقدّس، يحدث لحظة نُطق الكاهن بكلمات التأسيس: "خذوا كلوا هذا هو جسدي، خذوا اشربوا هذا هو دمي" (١٤).

وحين علّمت الكنيسة الغربية، بذلك، فلم يعد معنى لاستدعاء الروح القدس ليحل على القرايين. فكان أن حذفت كنيسة روما صلاة استدعاء الروح القدس من قُداسها اللاتيني منذ القرن الرابع، ولم تُعد صلاة الاستدعاء هذه مرّة أخرى إلى الليتورجيا الرومانية إلاّ في سنة ١٩٦٨ م بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، وذلك قبل كلمات التأسيس، ونصّها هو: "أنت حقاً قدوس، أنت ينبوع القداسة، فنطلب إليك يارب، قدّس هذه القرايين بحلول روحك القدوس عليها، لتصير لنا جسد ودم يسوع ربنا".

وفي الشرق، ومنذ حوالي سنة ٣٣٠ م، بدأ الكلام عن نزول الروح القدس على الأسرار (١٥). أمّا التركيز على استدعاء الروح القدس، الأقبانوم الثالث من أقانيم الثالوث القدوس، لتقدّس الأسرار، فقد ظهر بوضوح في كتابات القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦ م) أولاً (١٦). ويؤكد القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧ م) على عمل كل من الابن والروح القدس في القربان المقدّس. كما تركّز الليتورجيات السريانية والبيزنطية على استدعاء الروح القدس بالذات، ولا يوجد في الليتورجيات الأنطاكية سوى استدعاء واحد فقط للروح القدس.

وما علّم به القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦ م)، والقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧ م) في القرن

١٢ - نفس المرجع السابق، ص ١٧٨

13. ODCC., (2nd edition), p. 1390.

١٤ - الجدير بالذكر أن القديس غريغوريوس النيسي (٣٣٠ - ٣٩٥ م) كان يؤكّد في كتاباته على أهمية كلمات التأسيس.

15. Ibid., p. 279.

16. Ibid., p. 277.

الرابع الميلادي، تبناه بعد ذلك القديس يوحنا الدمشقي (٦٧٥-٧٤٩م) في القرن الثامن^(١٧)، ولكنه فصل فصلاً نهائياً بين كلمات التأسيس، وبين استدعاء الروح القدس، قائلاً: ”إنّ تقديس القرايين، لا يكون بهذه الأولى، بل بالثانية فقط على وجه التحديد“. وذلك رداً على تعليم الكنيسة الغربية، التي ركزت جداً على لحظة كلمات التأسيس، وعيّنت أهمية استدعاء الروح القدس على القرايين. فيقول:

[إنّ التقديس لا يتحقّق بالرشومات، أو برواية التأسيس، أي كلمات الربّ ”خذوا كلوا هذا هو جسدي ... خذوا اشربوا هذا هو دمي ...“، بل بحلول الروح القدس وحده].

ولم يجمع الانقسام الخلقيدوني في ذلك الوقت من دخول هذا التعليم إلى بعض الكنائس الأرثوذكسية الأخرى في الشّرق عن طريق الكنيسة اليونانية.

وأما ليتورجية كنيسة الإسكندرية، فكانت بمنأى عن هذه الصّراعات بين الشّرق والغرب، إذ لا تعرف لحظة محدّدة بذاتها، لتكون هي لحظة حضور المسيح في القرايين، وذلك بسبب وجود أكثر من صلاة استدعاء ἡ ἐπίκλησις The Invocation - بها. فهناك استدعاء للأقانيم الثلاثة معاً، أو لواحد منها، ليحل على القرايين ويقدّسها ويجعل منها جسد الربّ ودمه الكريمين، وكذلك أيضاً على المؤمنين الحاضرين ليؤهلهم لقبول الأسرار المقدّسة المهيبة.

فيذكر العلامة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) أنّ الاستدعاء على القرايين يكون باسم الثالوث، فيقول: [خُبز الإفخارستيا، هو الذي فوقه يُدعى باسم الله (الآب) والمسيح والروح القدس]^(١٨).

وفي قدّاس القديس سرابيون المعاصر للبابا أناسيوس الرسولي، هناك استدعاء لأقنوم الكلمة ليحل على القرايين، واستدعاء آخر للآب والابن والروح القدس ليحل على المؤمنين.

ويتحدّث البابا أناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م) عن حلول الابن في القرايين، فيقول:

[حينما تُرفع الصلوات العظيمة، والتضرّعات المقدّسة، ينزل الكلمة على الخبز والخمر، فيصيران جسده ودمه].

وقد بدأ استدعاء الروح القدس، في كنيسة مصر حوالي سنة ٤٠٠م^(١٩). فعقيدة حلول الروح القدس على الخبز والخمر، لنقلهما إلى جسد ودم المسيح، لم تكن قد دخلت في طقس الإفخارستيا في مصر، في زمن البابا أناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م). معناها، كحلول للتحوّل. ولكنّها دخلت إلى كنيسة مصر في زمن البابا التّالي له مباشرة، وهو البابا بطرس الثاني (٣٧٣-٣٧٨م)، وذلك تدعيماً للاهوت الروح القدس، الذي كان قد بدأت المنازعة اللاهوتية عليه في ذلك الوقت.

وفي الثلاثة قدّاسات القبطية، هناك الاستدعاء الأوّل في طقس تقديم الحمل. ثمّ ثلاثة استدعاءات بعده في القدّاس المرقسي، أو استدعاء آخر بعده في القدّاسين الباسيلي والغريغوري، وهي كلّها للروح القدس.

الاستدعاء الأوّل: يقول الكاهن: ”... باركهما، قدّسهما، طهّرهما، وانقلهما **οἶνον**“^(٢٠)، لكي يصير **ἵπτεσιν**^(٢١) هذا الخبز جسّدك المقدّس، والمزيج الذي في هذه الكأس يصير دمك الكريم...”.

الاستدعاء الثاني: وهو خاص بليتورجية القديس مرقس الرسول، ويأتي قبل كلمات التأسيس، ونصّه: ”املاً هذه الصّعيدة التي لك ياربُّ بالبركة التي من قبلك بحلول روحك القدّوس عليها. وبالبركة بارك، وبالتّقديس قدّس،

17. Gregory Dix, Dom, *op. cit.*, p. 292.

١٨ - شذرات في شرح رسالة كورنثوس الأولى ٥:٧

19. Gregory Dix, Dom, *The Treatise on The Apostolic Tradition of St. Hippolytus of Rome, op. cit.*, p. LIX.

٢٠ - هي صيغة الأمر من الفعل **οἶνω** ومن بين معانيه الكثيرة: ينقل - يسكب - يحوّل - يغيّر - يبذل - يقلب - يتجاوز ... الخ.

٢١ - الفعل **ἵπτεσιν** يعني: يكون - يصير - يحدث - يصبح.

